

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ..

[البقرة]

﴿١٦٤﴾

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّ بَعْضُكُمْ بِرَيْحٍ طَيِّبَةٍ .. ﴿٢٧﴾

[يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. ﴿٦٥﴾

[الاسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره .
كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَبُوتًا .. ﴿١٣١﴾

[النمل]

فالبهر مصدر من مصادر الرزق والقوت ، ومُستودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٦﴾

[الاسراء]

والرحمة اتساع مدد الفضل من الله ، فالذي أعطاكم البر بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التي تعيش عليها إما برّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإن كانت نسبة اليابس من الأرض الرّيح أو الخُش . فالباقي بحر شاسع واسع يزخر من خيرات الله بالكثير .

وطرق السير في اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشي لو تركب ، وكل وسيلة من وسائل الركوب حسب قدرة الراكب ، فهذا يركب حملاً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أن تحمل على شيء ، فمن رحمة الله بنا أن جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لجة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنامن الفرق .

وأول مَنْ صَنَعَ السَّفْنَ بِوَحْيٍ مِنْ اللَّهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمْ تَكُنْ
مَعْرُوفَةً قَبْلَهُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَصَنَعَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا نُوًّا عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ
قُرُونِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالُوا إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا
تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨)

[هود]

فَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ عَهْدٌ بِالسَّفَنِ ، وَكَانَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ بِدَائِيَةٍ مِنَ الْوُحَا
الْخَشَبِ وَالْحَبَالِ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَلَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ بِنَائِهَا ، وَهَدَاهُ
إِلَى تَنْظِيمِهَا مَا كَانَ لَهُ عِلْمٌ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَكَوْنُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ يَهْدِينَا
بِوَسْطَةِ نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ إِلَى مَرْكَبٍ مِنَ الْمَرَائِبِ الَّتِي تيسِّرُ لَنَا الْإِنْتِقَاعَ
بِثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ ، لَا شَكَّ أَنَّهَا رَحْمَةٌ بِالْإِنْسَانِ وَتَوْسِيعٌ عَلَيْهِ .

وكَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِنَا أَنْ يَسِّرَ لَنَا تَطْوِيرَ هَذَا الْمَرْكَبِ عَلَى مَرِّ
العَصُورِ ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ يَتَحَرَّكُ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ بِقُوَّةِ الْهَوَاءِ بِاسْتِخْدَامِ
مَا يُسَمَّى بِالْقَلْعِ ، وَالَّذِي يَتَحَكَّمُ فِي الْمَرْكَبِ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيَسْتَطِيعُ
الرَّيَّانُ الْجَاهِرُ تَصْفِيحَ الْقَلْعِ ، يَعْنِي تَوْجِيهَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي يَرِيدُهَا .

فَكَانَ الرِّيحُ هُوَ الْأَصْلُ فِي سَيْرِ السَّفَنِ ، ثُمَّ أَتَى التَّقْدِيمُ الْعِلْمِيُّ
الَّذِي اكْتَشَفَ الْبَخَارَ وَالْآلَاتِ ثُمَّ الْكَهْرِبَاءَ ، وَبِذَلِكَ سَهَّلَ عَلَى الْإِنْسَانِ
تَحْرِيكَ السَّفَنِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ ، كَمَا تَطَوَّرَتْ صِنَاعَةُ
السَّفَنِ كَذَلِكَ عَلَى مَرِّ الْعَصُورِ ، حَتَّى أَصْبَحْنَا نَرَى الْآنَ الْبَوَارِجَ
الْكَبِيرَةَ مُتَعَدِّدَةَ الْأَدْوَارِ ، وَالَّتِي تُشَبِّهُ فِعْلًا الْجِبَالَ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ
الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٩)

[الشورى]

يعْنِي : كَالْجِبَالِ ، وَكَانَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِينَا الدَّلِيلَ عَلَى

علمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما يستعمل إليه صناعة السفن من رقى يصل بها إلى أن تكون كالجبال ، والأففى زمن نزول القرآن لم يكن هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تبنى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسير هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألا يفتر الإنسان بما توصل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكا لزمم الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٢٢) [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإن قال قائل الآن : إن توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرت إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لو وجدت أن معنى الريح القوة المطلقة أيما كان نوعها ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَعَشَلُوا لِمُتَغَلَّبِينَ وَلَدَفَبَ بِهِمُكُم ..﴾ (٤٦) [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ ..﴾ (٢٢) [الشورى] يُسكن القوة المحركة للسفن أيما كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإن شاء سبحانه تعطلت كل هذه القوى .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا
بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)

البحر هو المزنق والضائقة التي لا يستطيع الخلاص منها إن أصابه فيه سوء ، فالبحر مناهذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْيَحٌ طَبِيعَةٌ وَقَرْحُوا بَهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ ۞ (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقت به الحيل ولم يجد مَنقذًا يلجأ إلى الله المُنقذ الحقيقي والمفرج الكرب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظل متعلقًا بالأمل في النجاة .

نقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ۚ ۞ (٢٧) ﴾ [الاسراء]

أى : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالى . وأحسوا بخطورة الموقف ولا مَنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار في هذا الموقف يَصُدِّقُونَ مع أنفسهم ، ولا يَخْدَعُونَهَا ولا يَكْذِبُونَ عليها ، فإِنْ آمَنُوا بآلهة أخرى وَإِنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم في هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله . ولا يدعون إلا الله : لأنهم يعلمون تمامًا أن الهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تنقذهم نفعًا ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ ۚ ۞ (٢٧) ﴾ [الاسراء] أى : ذهب عن بالكم مَنْ اتَّخَذْتُمُوهُمْ آلِهَةً ، وغابوا عن خاطرهم ، فلن يقولوا هنا يا هبل : لأنهم لن يغشوا أنفسهم ، ولن ينصاقوا وراء كذبهم في هذا الوقت العصيب .

إنهم في هذا الضيق لن يتذكروا الهتهم ، ولن تخطر لهم ببال

أبداً : لأن مجرد تذكركم يُضَعِّفُ ثِقَتَهُمْ فِي اللَّهِ الَّذِي يَمْلِكُ وَحْدَهُ
النَّجَاةَ ، وَالَّذِي يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْمَعُونَةَ .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة في الريف
الذي يتولى علاج البسطاء ، ويدعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض
ولده فسرته يسرع به إلى الطبيب ، لأنه إن خدع الناس فلن يخدع
نفسه ، وإن كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإن أحاطت به الأخطار
لا يلجأ إلا إلى الله : لأنه وحده القادر على تفريج الكرب وإغاثة
الملهوف ، حتى وإن كان كافراً : لأنه سبحانه هو الذي أمره أن يلجأ
إليه ، وأن يدعو ، فقال :

﴿ قُلُّوْا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَآءًا تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٧)

[الانعام]

فإن دَعَوُهُ سَمِعَ لَهُمْ وَأَجَابَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعَنَادِهِمْ : لأنهم عباده
وخلقه وصنّعه ، فما أرحمه سبحانه حتى بمن كفر به !

لذلك قال رب العزة في الحديث القدسي : « قَالَتِ الْأَرْضُ : يَا رَبِّ
إِثْنَن لِي أَنْ أَخْسِفَ بَابَن آدَمَ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ وَمَنَعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ
السَّمَاءُ : يَا رَبِّ إِثْنَن لِي أَنْ أَسْقُطَ كِسْفًا عَلَى ابْنِ آدَمَ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ
وَمَنَعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ الْجِبَالُ : يَا رَبِّ إِثْنَن لِي أَنْ أَخْرُقَ عَلَى ابْنِ آدَمَ
فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ وَمَنَعَ شُكْرِكَ ، وَقَالَتِ الْبَحَارُ : يَا رَبِّ إِثْنَن لِي أَنْ
أُغْرِقَ ابْنَ آدَمَ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ وَمَنَعَ شُكْرِكَ . فَقَالَ تَعَالَى : دَعَوْنِي
وَمَا خَلَقْتُ ، لَوْ خَلَقْتُمُوهُمْ لَرَحِمْتُمُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ عِبَادِي . فَإِنْ تَابُوا إِلَى
هَٰنَا حَبِيبِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا هَٰنَا طَبِيبِهِمْ » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤثروا النبوة ،
وأن يقتلوا في وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه رب ، وما دام رباً فهو

رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتَنَكَّرُوا لِلْجَمِيلِ والمعروف : لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧ ﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة . ولَيْتَهُ كفر بنعمة الخلق فقال : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة . إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مازقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نَجَّاه الله أعرض وتغرد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكَرَّ وَكَيْلًا ٦٨ ﴾

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نَجَّاهُمْ فِي الْبَحْرِ أَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فِي الْبَرِّ ؟ وهل الخطر في البحر فقط ؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنْزِلَ بِهِمْ فِي الْبَرِّ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ فِي الْبَحْرِ ؟

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. ٦٨ ﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى في شأن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. ٦٩ ﴾ [القصص] ولستم ببعيدين عن هذا إن أراد الله لكم ، وإن كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إن جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

(٦٨) حصبه : قذبة بالعصى . والحاصب : الإعصار الشديد يقدحكم بالعصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ ۭ ﴾ (٦٨) [الاسراء] أى :
ريحا تجعل الحصباء ، وترجمكم بها رجما ، والحصباء الحصى
الصفار ، وهى لَوْنٌ من ألوان العذاب الذى لا يُدْفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك
قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (٦٨) [الاسراء]

أى : لا تجدوا من ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن
البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ،
سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا إِلَهًا يَّبْعَثُ ۭ ﴾ (٦٩)

أى : وإن نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر ؛ لأنه
قادر سبحانه أن يُنذِقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة
أخرى ، ويوقعكم فيما أوقعكم فيه من كرب فى المرة الأولى ،
فالمعنى : أنجوتُمْ فامنّتُمْ .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ ۖ ۭ ﴾ (٦٩) [الاسراء]

القاصب : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى
اليأس ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۖ ۭ ﴾ (٦٩) [الاسراء] أى : بسبب كفركم
بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم
وتعبدتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتقرّوا له
بالفضل .

سورة الأعراف

٨٦٧٩

ثم يقول تعالى : ﴿لَمْ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِه تَبِعًا﴾ (٦٦) [الإسراء]

عندنا تابع وتببع ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شيء فيك ، أما التببع : فهو الذى يوالى تتبعك ، ويبحث عنك لأخذ ثأره منك .
فالمعنى : إن فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تببعاً يأخذ بئاركم
أو ينتقم لكم ، إذن : لا أمل لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف رد الفعل عنكم ،
والإنسان يحجم عن الفعل مخافة رد الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا
ضربت فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه
وتعالى فلا أحد يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ
مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٧٠)

وهل هناك تكريم لبني آدم أعظم من أن يُعد لهم مقومات حياتهم
قبل أن يخلقهم ؟ لقد رتب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿هو
الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ..﴾ (٧٩) [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخّر لكم من قبل أن توجدوا : لأن
خلق الله تعالى إما خادماً وإما مخدوم ، وأنت أيها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ تَهُ مُطَبَّاتٌ ^(١) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... ﴾ (٦١) [الزمر]

وقال تعالى : ﴿ فَالْمُذَبِّحَاتِ أَمْرًا ﴾ (٥) [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعَى منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أن يقفَ وقفة تأمل وتفكير ؛ ليصل إلى حلٍّ للغز الكون ، وليهتدي إلى أن له خالقاً مُبْدِعاً ، يكفي أن أنظر إلى آيات الله التي تخدمني ، وليس لي قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتي ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطيني وتُمدّني دون قدرة لي عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنْ الذي أعد لي كل هذه الأشياء التي ما أَدْعَاها أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذي خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أن تُرهقوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحل لكم هذا اللغز الذي حيركم .

وسبق أن ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذي انقلعت به السُّبُل في الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطيب الطعام والشراب ؛ أليس حزيناً به قبل أن تمتد يده إليها أن يفكر كيف أتته ؟

(١) له مطبات : أي ملائكة حافلة يتتبعونه يحفظونه ويحفظونه ويحفظون أعماله ، أو المسمى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢٩/٢] .

إذن : كان على الإنسان أن يعمل عقله وفكره في معطيات الكون التي تخدمه وتسفر من أجله ، وهي لا تاتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء في بيان أوجه التكريم في الإنسان ، فعنهم من قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيار ، ومنهم من قال : كُرِّمَ الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنْحِنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بشكل الأصابع وتناسقها في شكل يديع يسمح لها بالحركة السلسة في تناول الأشياء ، ومنهم من يرى أنه كُرِّمَ بأن ياكل بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم ملحظ في التكريم^(١) .

ولنا في مسألة التكريم هذه ملحظ كثرت أورد أن يلتفت إليه العلماء ، ألا وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يٰٓأٰدَمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْـدَيَّ ﴾ (٧٥) [ص]

وقال : ﴿ اِذَا سُوِّتَهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِيْ فَقَعُوْا لَهٗ سَاجِدِيْنَ ﴾ (٧٦)

[الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٠٢٢/٥) : « والمصحيح الذي يُعَوَّل عليه أن التفصيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُشبه كلامه ويرجع إلى تسميته وتمثيل رساله ، إلا أنه لما لم يذهب بكل المراد من العهد وهات الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ^(١) فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَسْمِعْهُ فَأُولَئِكَ يَتْلَوْنَ^(٢) كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قِيَلًا﴾

أى : يوم القيامة ، والداعى هو العنادى ، والناس هم المدعوون ، والدعاء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يفصل هذا الإجمال ، فتنادى كل جماعة بمن بلغهم وهداهم وتلكم ليقرى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم (بإمامهم) أى : بأمرائهم ، وفى دعاء الناس بأمرائهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وسنقر على

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمئهم » :
 - بكتابتهم . بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قال ابن عباس وقسطن وقنطارة والقشماك .
 - بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدهى كل إنسان يكتابه الذى كان يتلوه ، ليدعى أهل التوراة بالثوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .
 - بنبيهم ، والإمام من يؤتم به . قاله مجاهد .
 - بإمام عصرهم . قاله قتادة وطى بن أبى طالب رضى الله عنه .
 - بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالسودور ، أين الصائرون عن المطبور . قاله الحسن وأبو المالية وابن عباس .
 - بأمرائهم . قاله محمد بن كعب .
 ذكر القرطبي هذه الأقوال فى تفسيره (٤٠٢٥/٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفَضِّحُوا على رؤوس الأشهاد في مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ أُرِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ﴾ (٧٢) [الحاقة] إنه مسرور بعمله الصالح الذي يحب أن يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١) [الإسراء]

الظلم أن تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص في شيء تريد أن تحصل عليه ظلمًا ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخلق ؟ إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادة لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخلق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلًا ﴾ عادة يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن بالمألوف عند العرب وفي بيتهم ، ومن مألوفات العرب النمر ، وهو غذاؤهم المفضل والحطب لماشيئتهم ، ومن النمر أخذ القرآن النقيير والقطمير والفتيل ، وهي ثلاثة أشياء تهدمها في نواة الشجرة ، وقد استخدمها القرآن في تمثيل الشيء الضئيل القليل .

فالنقيير^(١) : هو تجويف صغير في ظهر النواة مثل النقطة .

(١) ورد لفظ « النقيير » في القرآن مرتين :
 - ﴿ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نَصِيبٌ مِّنْ أَمْلَكِ فَلَا يُدْعَوْنَ أَنَّىٰ بَقَرًا ﴾ [النساء]
 - ﴿ وَمَنْ يَضِلْ مِّنَ الصَّالِحِينَ مِنْ ذَكَرِ أَرْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النساء]

والقطمير^(١) : هو اللغاة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط في بطن النواة .

فمعنى : ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) [الإسراء] أى : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنَزَّهُ عن الظلم مهما تنامى في الصُّقَر .

وفي مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أوتى كتابه بشماله . كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يُسَلِّتُنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ﴾ (٧٥) [الحاقة] وفي آية أخرى قال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ (١٦) [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ

وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه : لأنه عميت بصيرته في الدنيا فعسى في الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شك أنه من أهل الشمال . فالآيات ذكرت مرة السبب ، وذكرت مرة المسبب ، ليلتقى السبب والمسبب . وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكان الحق سبحانه قال : إِنْ مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَقَرَأَهُ وَتَبَاهَىٰ بِهِ لَمْ يَكُنْ أَعْمَىٰ فِي دُنْيَاهُ ، بَلْ كَانَ بَصِيرًا وَاحِيًا ، فامتدحى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

(١) ورد لفظ « القطمير » في القرآن مرة واحدة :

- ﴿وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُونَ مِنْ قُرْبِهِ مَا يُنْكِرُونَ مِنْ لُطْفِهِ﴾ (٥٧) [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة
لا عمى بصر؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك
المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم .
مُدرَكين لمعاديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى
خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على مدى
لا بُدَّ له من بصر يرى به المرائى العادية ، حتى لا يصطدم بأقوى
منه فيتحطم أو بأضعف منه فيعطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من
عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو
ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو
البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن
به وسار على هديه .

وقوله : ﴿ فَهَرَى فِي الْأَحْزَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [الإسراء]

إن كان عماء فى الدنيا عمى بصيرة ، فعماء فى الآخرة عمى
بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف
الخير من الشر ، وعليها يترقب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ،
إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ
لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَعَشْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿ (١٢١) [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَنَعَشْرَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
ضُمًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴾ (٩٧) [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية في الآخرة . مثل قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴾ (٧٥) [مريم] وقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّرْءَاوُهَا .. ﴾ (٥٢) [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات والتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة في مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهول المحشر يكونون عَمِيًّا وَبُكْمًا وَصَمًّا لتزداد حيرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم في هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم في كَرْبٍ وَحَيْرَةٍ لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصري عندهم .

أما الحالة الثانية وهي الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حَادًّا البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلاحظ أن الفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٦) [الأنعام]

فلفظ (أَعْمَى) واحد ، لكن في الآخرة قال (وَأَضَلُّ سَبِيلًا) إذن : لا بُدَّ أن عمى الدنيا أقل من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير ، فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خير من هذا فقد فضلت الأول في الخيرية عن الثاني ، إذن : كلمة خير إما أن تأتي وصفاً ، وإما أن تأتي تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » ^(١) .

فالمراد أن المؤمن القوي أكثر في الخيرية ، إذن : فكلمة : ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَغْنَى .. ﴾ (٧٢) [الأنعام] ليست وصفاً ، وإنما تفضيل لعسى الآخرة على عسى الدنيا ، أي أنه في الآخرة أشد عسى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٧٢) [الأنعام] ومعلوم أنه كان ضالاً في الدنيا ، فكيف يكون أضل في الآخرة ؟

قالوا : لأن ضلاله في الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السوي ، أما في الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلاله في الآخرة أشد وأعظم من ضلاله في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه ^(٢) :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

لِنُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرَ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خِلَالًا ﴾ (٧٢)

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادين أن يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢ ، ٢٧٠) وابن ماجه في سننه (٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت في وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ لطلبنا باللات سنة ، وحرم علينا كسب حرمات مكة شجرها وظيها وحشها ، فابى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجيبهم ، فانزل الله هذه الآية ، وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبي ﷺ : لا تكف عنك إلا بأن تكلم بكهنتنا ولو بطرف أصابعك ، فقال النبي ﷺ : ما علي لو فعلت والله يعلم أنني بارئ ، فانزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : نَدْعُ آلِهَتَنَا نَتَمَتَّعَ بِهَا سَنَةً وَنَأْخُذَ الْغَنَائِمَ مِنْ وَرَائِهَا وَتَحْرِمَ لَنَا بِلَدَنَا - أَيْ : تَقْيِفُ - كَمَا حَرَمْتَ مَكَّةَ . وَمَرَّةٌ يَقُولُونَ لَهُ : لَا تَسْتَلِمِ الْحِجْرَ وَيَمْنَعُونَهُ مِنْ اسْتِلاَمِهِ حَتَّى يَسْتَلِمَ آلِهَتُهُمْ أَوَّلًا .

وَمَعْنَى (كَادُوا) أَيْ قَارِبُوا ، وَالْمُقَارَبَةُ غَيْرُ الْفِعْلِ ، فَالْمُقَارَبَةُ مَشْرُوعُ فِعْلٍ وَتَغْطِيطٌ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدِثْ ، إِنَّهُمْ قَارِبُوا أَنْ يَفْتَتَحُوا عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ لَكِنْ لَمْ يَحْدِثْ ؛ لِأَنَّهُمْ مَحَاوِلَاتُهُمْ كَانَتْ مِنْ بَعِيدٍ ، فَهِيَ تَحْوِمُ حَوْلَ فَتَتَّكَ عَنْ الدِّينِ ، كَمَا قَالُوا مَثَلًا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً ، وَنَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً^(١) .

وَمَعْنَى : ﴿ لِيَفْتَنُوكَ ﴾ لِيَحْوِلُوكَ وَيَصْرِفُوكَ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، لِمَاذَا ؟ ﴿ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غِيْرَهُ .. ﴾ [الأنعام] ٧٢ ﴿ كَمَا حَكَى الْقُرْآنُ عَنْهُمْ فِي آيَةِ أُخْرَى : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ .. ﴾ [يونس] ١٥ ﴿

لِيَكُونَ الْجَوَابُ مِنَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدَّيْنَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُرْسَى إِلَيَّ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴾ [يونس] ١٥ ﴿

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس] ١٦ ﴿

وَنَلَاظِظْ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يَتَحَمَّلُ الْعَنْتَ عَنْ

(١) أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ قَرِيشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يَعْطَوْهُ مَا لَا يَكُونُ أَغْلَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ . فَقَالُوا : هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَكَفَّ مِنْ شَتَمِ آلِهَتِنَا وَلَا تَذْكُرْ آلِهَتَنَا بِسَمِّهِ . فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ لَمَانًا نَحَرَسَ حُلَيْكَ غَسَلَهُ وَاحِدَةً وَكَفَّ فِيهَا سِلَاحًا . قَالَ : مَا مَنِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً . فَنَزَلَ الْوَحْيُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ ١٥ لَا أُعْبَدُ مَا تُعْبُدُونَ ١٦ ﴾ [الأنعام] ١٥ . ذَكَرَهُ الصِّيَوِيُّ فِي الدَّرَجَةِ الْمَنْقُورَةِ (٦٥٤/٨) .

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصْئِقٌ عندهم ، لكن المسألة عندي
أنا . وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل
القوم ضغينة لرسول الله .

الخليل : هو المصالح الذي بينك وبينه حبٌّ ومودةٌ ، بصيِّت يتخلل
كل منكما الآخر ويتغلغل فيه . ومنه قوله تعالى في إبراهيم :
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (٢٢٥)

وَلَمَّا التَقَيْنَا فَرَّبَ الشَّوَاقُ جَهْدَهُ
كَأَنَّ خَكِيلًا فِي خِلَالِ خَكِيلِهِ
خَكِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعَقَابًا
تَسْرَبُ أَثْنَاءَ الْعَنَاقِ وَغَايَا

فالمعنى : لو أنك تنازلت عن المنهج الذي جاءك من الله لخبرت
 خليلاً لهم . كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون
 عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذي جعلهم في حالة عداء لك هو
 منهج الله الذي جئت به ، فلو تنازلت عنه أو تهافتت فيه فسوف
 يتخذونك خليلاً ، فلا تكن خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذي أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه ورسوله ﷺ ، فيقول :